

التأصيل الإسلامي لعلم النفس

د. سلاف مشري. جامعة الوادي - الجزائر
 أ. حياة مشري. جامعة ورقلة-الجزائر
 البريد الإلكتروني: mecheri-soulef@univ-eloued.dz

ملخص:

تهدف هذه المداخلة إلى عرض واقع أزمة علم النفس في العالم الإسلامي ومنطلقات مشروع تأصيل علم النفس إسلامياً، والإشكاليات التي واجهها المشروع، وبشكل خاص: الإشكاليات المتعلقة بالمصطلح، والإشكاليات المتعلقة بالموقف من التأصيل بحد ذاته. ثم يتم استعراض محاولات التأصيل الإسلامي لعلم النفس من خلال المناهج المقترحة وجهود عدد من الباحثين في هذا المجال. تم استخلاص أن هناك تحديات كانت بمثابة العوائق لتجسيد مشروع تأصيل علم النفس إسلامياً، لكن الطرف الراهن يفرض تحديات جديدة تتعلق برفض كل ما هو إسلامي.

الكلمات المفتاحية: التأصيل الإسلامي لعلم النفس، أسلمة علم النفس، علم النفس الإسلامي.

Islamic Rooting for Psychology

Abstract :

This presentation aims to show the reality of psychology crisis in the Muslim world and the starting points of the project Islamic rooting psychology, and the problems faced by the project, in particular: the problems related to the concept, and the problems relating to the position of rooting itself. Then review the attempts of the Islamic rooting for psychology through the proposed curriculum and the efforts of a number of researchers in this field.

It was concluded that there are challenges have served as barriers to embody the project rooting Islamic psychology, but the present situation poses new challenges related to reject everything that is Islamic.

Keywords: Islamic Rooting for Psychology, Islamization of Psychology, islamic psychology.

مقدمة:

يشهد العصر الحالي تطورات وتحولات جذرية على جميع الأصعدة، انبثقت عن الإنجازات الهائلة على مستوى العلوم بمختلف مجالاتها وتخصصاتها، فقد أصبح التقدم العلمي سريعاً جداً ولا يتحدد بحدود سواء كانت موضوعية أو مكانية أو زمنية أو مادية...؛ فيمكن للعلماء تناول أي موضوع بالدراسة والبحث والتجريب، حتى وصل بهم الأمر لمعالجة موضوعات محل خلاف وحتى استهجان على مختلف الكائنات الجامدة والحية، كما وصلت البحوث العلمية لأقاصي الأرض وأعماق البحر وامتداد الفضاء، وتم دراسة التاريخ السحيق والتنبؤ بالمستقبل البعيد، واستخدمت في ذلك أكثر التقنيات والوسائل تطورا ودقة..

ومع ذلك؛ فبقدر ما تم تحقيقه من تطورات وإنجازات واسعة النطاق، إلا أن التحديات والأزمات التي يعيشها الأفراد والمجتمعات كذلك في تزايد مستمر، فقد تولدت عنها حالة من الإرباك وعدم الاستقرار في النواحي السياسية والإقتصادية والاجتماعية، وإلى شعور بالتوجس من المستقبل، جعلت من الاستمتاع بالحياة أمراً صعب المنال لكل فئات وشرائح المجتمع.

لقد تبين أن مواجهة هذه التحديات التي يعرفها العصر لابد أن يلازمها -وحتى أن يسبقها- بناء الإنسان، الذي يمتلك القدرات والمهارات والإمكانات التي يمكنه بممارستها التعامل مع التقدم المعرفي والتقني المتسارع.¹ وبالتالي، فإن الحاجة تصبح ماسة أيضاً لمختلف العلوم لتحقيق ذلك، وفي مقدمتها العلوم الاجتماعية والإنسانية، وبشكل أخص علم النفس للإضطلاع بهذا الدور، من خلال الدراسات والبحوث العلمية والممارسات التطبيقية والتدخلات الوقائية والعلاجية التي ترمي إلى فهم الإنسان ومساعدته على استثمار ما لديه من إمكانات وقدرات وتحقيق صحته النفسية، بما يحقق له التوافق مع ذاته ومع مجتمعه.

ومما لا شك فيه، أن ثقافة المجتمع ومشاكله توجه اختيار الموضوعات المدروسة في العلوم عامة والعلوم الاجتماعية خاصة، والتأثر بهذه الثقافة في أوساط المختصين يظهر عند ابتكار الأفكار التي تقود الأبحاث، ثم فيما يتلو ذلك من إجراء التجارب، وتكون النظريات، وبناء الوجهة العامة للعلم، لذلك تبدو سلبيات الانشغال بمشاكل المجتمعات الأخرى ونقلها للآخرين.²

وعلى هذا الأساس؛ تبين لعلماء النفس والباحثين في البلدان العربية والإسلامية أنه من الضروري وضع أسس ومنطلقات جديدة ومختلفة لتناول ومعالجة مشكلات الإنسان فرداً وجماعة، وفق أسس علم النفس ومنهجه العلمي، ولكن بما يتوافق مع طبيعة المجتمع الذي ينتمي إليه على كل الأصعدة؛ وبما يزخر به من إرث تاريخي وما يعانيه في حاضره، وما يتطلع إليه في مستقبله، وعلى النحو الذي يحقق رفاهية الفرد والمجتمع، وفي نفس الوقت وضع معالم لعلم نفس جديد، ضمن حركة تنحو به نحو تأصيله إسلامياً، ويذكر منصور والشربيني والفقهي³ أن هناك محاولات في الوقت الحاضر نحو صياغة الفكر الإسلامي ومناهجه في مجال الدراسات النفسية.

1 - أزمة علم النفس في العالم الإسلامي ومنطلقات حركة التأصيل:

فرض التقدم العلمي والتكنولوجي الذي يعرفه هذا العصر أشكالاً متعددة من الهيمنة والسيطرة سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وحتى اجتماعياً وثقافياً وعلمياً من طرف البلدان الذي تقوده على حساب الدول الأكثر تخلفاً في هذه المجالات، تجسدت في تبعية شبيهة مطلقاً تصل للحد الذي تهدد فيه الأمن القومي لهذه البلدان، واستمرارية مجتمعاتها من ناحية التاريخ والثقافة وغيرها، تحت مظلة عدة مسميات منها العولمة، وفي إطار ما أشار إليه ابن خلدون في مقدمته: "المغلوب مولع بتقليد الغالب".

ومن المؤسف القول أن البلدان العربية والإسلامية تقع ضمن هذه الدائرة من التبعية والتقليد في كل مجالات حياتهم اليومية، حتى أن مالك بدري⁴ مثل الوضع بـ"الدخول في جحر الضب"، وهو مستقصى من الحديث النبوي الشريف الذي تنبأ فيه الرسول ﷺ بأنه سيأتي يوم يقلد فيه المسلمون المسيحيين واليهود تقليداً أعمى في أساليبهم، بالرغم من اتصاف بعض هذه الأساليب بالسخر والخروج عن الإسلام. والواقع أن هذه التبعية والتقليد شمل بالتأكيد المجالات العلمية المختلفة، ومن بينها علم النفس، فكما يشير نجاتي، محمد عثمان⁵ أن علم النفس والعلوم الإنسانية الأخرى التي تدرس في جامعات البلاد الإسلامية لم تخضع للتحليل النقدي لمعرفة مدة اتفاق مفاهيمها ونظرياتها مع المبادئ الإسلامية.

إن المهتمين بالدراسات النفسية في البيئة العربية والإسلامية لا تغيب عنهم السلبات الناشئة عن بعض الآراء والنظريات النفسية الوافدة، بل أغلبهم على وعي بهذه السلبات، وعلى وعي بالطريقة المثلى لمواجهتها، وهي طريقة قائمة على تجاوز النقل الحرفي إلى الترجمة المقرونة بالدراسة النقدية، والتميز بين وحدة الموضوع المدروس، والاختلاف في وجهات النظر حوله تبعاً لاختلاف المسلمات والفروض والمناهج والنظرة العامة لطبيعة الظاهرة النفسية ومكوناتها.⁶

ويرى فؤاد أبو حطب أنه يمكن القول أن هناك أزمة لعلم النفس في العالم العربي والإسلامي، وفي رأيه صنعها علماء النفس المسلمون أنفسهم، ولا يلام علماء النفس الغربيين إن وجهوا علم النفس لتحقيق مصالحهم وأهدافهم، والملوم هم الذين وضعوا أنفسهم في شرك التبعية العلمية. يلخص فؤاد أبو حطب واقع العلاقة بين الغرب والعالم الثالث في مجال الدراسات النفسية في مجموعة من النقاط تعتبر أعراضاً تحدد أزمة علم النفس في العالم العربي والإسلامي:⁷

- 1- علاقة الاستيراد والتصدير التي تتم من جانب واحد دائماً.
- 2- الاعتماد المعرفي على الغرب (نظريات ونماذج ومفاهيم ومناهج واختبارات ونتائج)
- 3- قطع الصلة بالتراث الثقافي واعتبار القديم عائقاً عن التقدم.
- 4- انتشار البدع الثقافية في العلم.
- 5- كَفَّ التفكير الإبداعي وانتشار التكرار في البحوث والرسائل العلمية وانفصالها عن مشكلات الواقع الجوهريّة، فضلاً عن ظواهر الادعاء والتزوير والسرقفة.
- 6- الاغتراب وفقدان الهوية الثقافية.

7- فقدان الهوية المهنية (الخط بين الأخصائي النفسي والأخصائي الاجتماعي، وطبيب الأمراض العقلية) إضافة إلى أن ما يدرسه الأخصائي النفسي لا يكفي للتأهيل.

حسب ما يبدو من خلال هذه الأعراض التي حددها فؤاد أبو حطب لأزمة علم النفس في العالم الإسلامي أن وجوده سواء على المستوى الأكاديمي العلمي أو المستوى العملي التطبيقي لا يبشر بخير، وأن الحديث عن علماء نفس مسلمين ومختصين نفسانيين يمكنهم أن يطرحوا نظريات أو يقترحوا حلولاً فعالة لمشكلات مجتمعاتهم الإسلامية لا يعدو أن يكون مجرد شعار وتطلع لم يرقى بعد إلى حيز التنفيذ، كما يبدو جلياً مدى هشاشة نظم التكوين الجامعي في تخصصات علم النفس في العالم الإسلامي، الذي اهتم بالكم على حساب النوع، وبالتالي يتم سنوياً تخريج الآلاف من خريجي تخصصات علم النفس المختلفة لحاملي شهادات هذه التخصصات دون تأهيل فعلي، وبالتالي، فما أشار إليه أبو حطب يشير فعلاً إلى أزمة لعلم النفس في العالم الإسلامي تتجس في تعريبه عن الواقع واغتراب منتسبيه.

ومن زاوية نظر أخرى، نعتبرها أكثر تقاؤلاً، بين مالك بدري⁸ أن تبعية علماء النفس المسلمين للغرب يمر عبر ثلاثة مراحل تنتهي بالخروج مما سماه بجر الضب، وهذه المراحل هي: مرحلة الافتتان، مرحلة الوفاق، مرحلة الانعتاق، مع ملاحظة أنه يمكن الانتقال مباشرة من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثالثة بشكل مباشر، إذا ما توافرت الدوافع والخبرة.

1- مرحلة الافتتان: وتكون خلال التكوين، حيث يثير علم النفس وأساليبه الذكية الشباب، ويسهل تأثرهم بمعلميهم، ويأخذون ما يقرؤون كحقائق ثابتة، ويتمسكون لتطبيقها على السلوك الحقيقي، ويعتقد معارفهم الذين يحيطون بهم أنهم خبراء في مجال معرفة ما يدور في ذهن البشري وتحليل الناس، وهذا ما يعزز لديهم الشعور بالفخر وينزلون تدريجياً في التبعية، وإذا كانوا من الممارسين في الميدان، فإنهم في هذه المرحلة يميلون لأن ينمو في داخلهم نظام الشخصية المزدوج، كأن يعيش المختص النفسي المسلم أفكار (فرويد) جنباً إلى جنب مع العقيدة الإسلامية.

2- مرحلة الوفاق: في هذه المرحلة يدخل الطلبة حالة من التناثر المعرفي والإحباط، خاصة بعد مرور الزمن ودخولهم للدراسات العليا، ولسد الفجوة يبدوون بالبحث عن حل وسط مصطنع يقرب بين الإسلام ونظريات علم النفس، من خلال البحث عن علماء المسلمين من ذوي الأثر الفعال، ويعتقدون مثلاً أن القرآن يدعم النظرية الفرويدية المتعلقة بالجهاز النفسي وتقسيمه إلى ثلاثة مكونات: الهو، الأنا، الأنا العليا، وأنه يقابلها في القرآن الكريم: النفس الأمارة بالسوء، والنفس المطمئنة، والنفس اللوامة.

3- مرحلة الانعتاق: في هذه المرحلة يتم إدراك أنه على الرغم من أن مدارس علم النفس المعاصرة تتشابه في ظاهرها مع الإسلام في بعض النواحي، إلا أنها تختلف تماماً عن الإسلام فيما يختص بمفاهيم الحياة ووضع الإنسان ومصيره في هذا الكون، وعند ذلك يدرك أخصائيو علم النفس أنه عليهم أن يكونوا أمناً مع أنفسهم ومع من يلجؤون إليهم بحثاً عن المساعدة فيما يستطيعون عمله حقاً من أجلهم وما لا يستطيعونه، ثم بكل تواضع يوظفون مواقعهم الجديدة في المساعدة الحقة للمسلمين، وفي تصويب التفسيرات الخاطئة عن الإسلام.

من هذا المنطلق؛ بات من الضروري أن تتبثق حركة فكرية تعيد النظر في مرجعية علم النفس في العالم الإسلامي، ليس لأن لكل مجتمع مرجعيته فقط، وإنما لأن المرجعية الإسلامية هي أساسا مرجعية جامعة لكل البشر بكل أجناسهم وأطيافهم وعلى اختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبقاتهم.

يؤكد حسين الشرقاوي⁹ هذا الطرح، إذ يرى أن الفلسفات الغربية ابتعدت عن الأصول وركزت على الفروع، بمعنى اهتمت بالتجارب الإنسانية السابقة واستنبطت منها أحكامها وفق نظرة أفقية بدل أن تستقيها من هدي الدين وفق نظرة رأسية يجدر أن تكون أساسا للنظم الحياتية. والحق أن هناك بونا شاسعا بين النظرة الأفقية والرأسية في بناء النظم الحياتية، ذلك أن النظرة الأفقية إنما هي عملية اجترارية فحسب، تتسحب على التجارب الإنسانية الماضية والتي يشوبها خطأ كثيرا، والحق قليلا، ولا يمكن أن تكون النبع الذي يستقى منه الفكر والسلوك العملي.

في نفس الإطار يشير محمد عز الدين توفيق إلى نقطة جد هامة، وهي أنه إن كانت بعض المرجعيات التي لا ترقى إلى مرجعية الإسلام، كالمرجعية الداروينية القائمة على نظرية التطور قد أقنعت بافتراضاتها علماء النفس في الشرق والغرب، ويستندون إليها لتأسيس نظرياتهم وبناء الوجهة العامة التي تستوعب وتؤطر تلك النظريات... فإن الباحث النفسي المسلم أحق منهم بعرض مكتسباته العلمية على مرجعيته الإسلامية بوصفها وحيا من عند الله، بل إنه أجدر من غيره بالبحث في العلوم الاجتماعية، لثراء المعلومات التي تمده بها هذه المرجعية المتميزة.¹⁰

وليس القصد من محاولات التأصيل الإسلامي لعلم النفس كما يرى منصور وآخرون¹¹ بناء مناهج جديدة في علم النفس، بل إن الهدف الأساسي الوصول إلى علم نفس، يتوافق في نظرياته ومناهجه وموضوعاته مع المجتمع الإسلامي.

في السنوات الأخيرة زادت العناية بهذا الموضوع وتطورت الدعوة إلى حركة واسعة صار لها أدبياتها الخاصة بها، وأصبح التأصيل مقررا يدرسه طلاب علم النفس في أكثر من جامعة، ونشأت جمعيات وروابط علمية ومؤسسات تعنى بالتأصيل، وأقيم له كذلك عدد من المؤتمرات العلمية، كما نشرت الكثير من البحوث والكتب حوله.¹²

2- إشكاليات حركة التأصيل الإسلامي لعلم النفس:

تواجه محاولات التأصيل الإسلامي لعلم النفس منذ بدايات ظهورها بعض الإشكالات، يمكن اعتبارها من أهم العوائق التي حالت دون تجسيدها على أرض الواقع وتلمس نتائجها بشكل فعلي على الصعيد العلمي والميداني، أهمها ما يمكن أن نوجزه أهمه في: إشكالات متعلقة بالمصطلح، إشكالات متعلقة بالموقف من التأصيل.

2-1- إشكالات متعلقة بالمصطلح:

تعود الدعوة إلى التأصيل الإسلامي لعلم النفس إلى أكثر من نصف قرن؛ فمحمد عثمان نجاتي يعتبر أن بداية النشأة كانت بنشره لكتابه: " الإدراك الحسي عند ابن سينا، بحث في علم النفس عند العرب" سنة 1948، الذي تناول فيه مصطلح: "علم النفس الإسلامي" والذي كان يعني به: التراث النفسي عند العلماء المسلمين¹³، ومع ذلك قد تعود هذه الدعوة إلى زمن أبعد من ذلك بكثير، إذ يرى أحمد فؤاد الأهواني أن أبو حامد الغزالي هو من وضع أسس علم النفس الإسلامي بمعنى الكلمة، على غزارة ما كتب في هذا الموضوع،⁴ بينما يعتبر معروف زريق¹⁵ أنه من الأوائل الذين بحثوا في علم النفس الإسلامي بحثاً شاملاً متكاملًا وأرسى قواعده بشكل علمي وأقام صرحه بشكل موضوعي.

ومع الاختلاف فيمن يرجع إليه الفضل في نشأة هذه الدعوة، اختلف كذلك الباحثون في تسميتها ودلالاتها، واستخدمت عدة مصطلحات لذلك، يذكر الصبيح⁶ أهمها: علم النفس الإسلامي، أسلمة علم النفس، التوجه الإسلامي لعلم النفس، التأصيل الإسلامي لعلم النفس... وغيرها.

أ- **علم النفس الإسلامي:** مع أن هذا المصطلح يعتبر من أول وأكثر المصطلحات استخداماً إلا أنه في نفس الوقت لقي معارضة من قبل العديد من علماء النفس، كل من زاوية نظره، وبالتالي اختلف مدلول المصطلح لدى كل طرف؛

- فقد أشار نجاتي¹⁷ إلى أن محمد رشاد خليل ومحمد حسين الشرقاوي مثلاً قد استخدموا مصطلح علم النفس الإسلامي، إلا أن تناولهما كان بموقف متطرف، فمحمد رشاد خليل مثلاً في كتابه "علم النفس الإسلامي العام والتربوي" الذي صدر سنة 1987 رفض فيه علم النفس الحديث بأكمله، وكل نظرياته وكل نتائج علماء النفس الغربيين، واعتبر أن مصادر علم النفس الإسلامي ثلاثة فقط، هي: الكتاب والسنة والفقهاء.

وبهذا المعنى؛ فعلم النفس الإسلامي حسبه يحض كل ما سبقه، ويدعو إلى الإنطلاق من الصفر، أي بتأسيس البحوث والدراسات في المجال النفسي من جديد على ضوء ما جاء في الكتاب والسنة والفقهاء فقط.

- أما علماء آخريين فقد استنكروا اللفظ، باعتبار أنه يشير للعلم بأنه مسلم أو كافر، لأن العلم لا وطن له، ولا يخضع للدين، فهذا كالفول علم الهندسة الإسلامي، أو الطب، وغير ذلك، فهذه العلوم من جهة أنها عبارة عن ملاحظة الظواهر واستخلاص القوانين التي تحكمها واحدة، مادامت قد بلغت المرحلة العلمية

الصحيحة، فلا فرق بين هندسة يابانية أو انجليزية، ولا كيمياء مسيحية أو كيمياء إسلامية، كذلك الحال في علم النفس مادام قد أصبح علما يخضع كغيره من العلوم لقوانين، ويعتمد على ملاحظة الظواهر، لا ينبغي أن يقال: هذا علم نفس إسلامي أو نصراني، أو علم نفس يوناني أو هندي أو أمريكي...¹⁸

والحقيقة أن هذا الرأي قد يبدو مقنعا للوهلة الأولى، إلا أن الباحثين الذين يؤيدون هذا المصطلح دافعوا عن هذا الاعتراض؛ حيث يرى نجاتي¹⁹ أن هذا الاعتراض يمكن قبوله بالنسبة للعلوم الطبيعية التي تبحث في مواد طبيعية لا تتغير طبيعتها في المجتمعات البشرية المختلفة، أما بالنسبة للعلوم الإنسانية، ومنها علم النفس، فالأمر مختلف، فهذه العلوم تتأثر بثقافة المجتمع وقيمه واتجاهاته في التفكير وفلسفته في الحياة وتصوره للإنسان ولرسالته في الحياة.

أحمد فؤاد الأهواني في تقديمه لكتاب "الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص" لمؤلفه عبد الكريم العثمان²⁰ فيقدم توضيحا بشكل أكثر تفصيلا بالقول أن دخول علم النفس زمرة العلوم الطبيعية لم يتم إلا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بمعنى قد تأخر كثيرا مقارنة بباقي العلوم، ذلك لأن النفس الإنسانية معقدة أشد التعقيد، ويصعب إخضاع كثير من ظواهرها للقياس والتجارب، وهما شرطا العلم الصحيح بمعنى الكلمة، ولمسايرة منهج العلوم الطبيعية، ابتعد علم النفس الحديث نهائيا عن القول بوجود "نفس" باعتبار أن النفس شيء لا يمكن بحثه علميا، كما ألغت كثير من مدارس علم النفس "الشعور" من مجال دراستها، لأن مثل هذا البحث لا يتفق مع الأساليب العلمية.

إلا أنه وجد أنه لا يمكن إلغاء "النفس" أو إلغاء "الشعور"، فالإنسان تختلف طبيعته عن باقي الكائنات والجمادات، فإلى جانب سلوكه الظاهر المتفق مع سائر الكائنات الطبيعية، إلا أن له سلوك باطني، من ميول ودوافع واتجاهات... كما أن إلغاء الشعور لا يعني بأي حال أنه لا وجود له. ومن أجل ذلك لا تزال بعض المدارس في علم النفس الحديث تفسح المجال أولا للتأمل الذاتي وهو منهج لا يتفق مع مناهج العلمي الطبيعي، وثانيا لدراسة ظواهر قد تتعارض أو على الأقل تقع في دائرة تختلف عن دائرة العلم، وهي الظواهر الدينية. وبما أنه فسح المجال لدراسة الظواهر الدينية نفسانيا، فلا غرابة أن نقول بوجود علم نفس إسلامي، لاختلاف خصائص كل دين من الأديان.

ب- أسلمة علم النفس: لم يختلف الرفض الذي لقيه هذا المصطلح كثيرا عن تلك التي وجهت لمصطلح علم النفس الإسلامي، بل وتمت معارضته حتى من جوانب أخرى، وقد أشار نجاتي²¹ والصبيح²² لأهمها، ويمكن تلخيص هذه الجوانب كما يلي:

- 1- مصطلح "أسلمة" خاطئ من الناحية اللغوية.
- 2- الأسلمة تقتضي إسلام العلوم، والعلوم لا إرادة لها ولا عقل كالجمادات الأخرى، فلا يمكن إطلاق الإسلام عليها.
- 3- هي "كهانة- كنيسة" جديدة في دوائر المعرفة، وتفرض نوعا من الحجر على اجتهادات العلماء الفكرية.

4- تعني انفصالا وانعزالا عن دائرة العلوم والمعارف التي أبدعها العقل الإنساني في المجتمعات غير الإسلامية، مما يؤدي إلى زيادة انغلاق المجتمعات الإسلامية وعدم تمكنها من ملاحقة حركة التقدم العلمي والتكنولوجي في البلاد الأخرى من العالم.

5- لا تعني أكثر من إضافة بعض آيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة إلى قوانين العلوم واكتشافاتها الحديثة، لبيان وجود علاقة بين الدين والعلم.

أما المؤيدون للمصطلح فركزوا على مدلوله العام، المراد منه في نظرهم هو إقامة علاقة بين الإسلام والمعرفة، أي الصلة بين كتاب الوحي: القرآن الكريم وبيانه النبوي، وبين كتاب الوجود: معارف الإنسان في العلوم الإنسانية والطبيعية، كما يرى جعفر شيخ إدريس (باعتباره من أول من استعمل هذا المصطلح) أن الدعوة إلى إسلامية العلوم هي دعوة إلى تأكيد الموضوعية، لا إلى التخلي عنها، لأنها دعوة إلى أن يكون إطارها الفلسفي نفسه قائما على حقائق موضوعية، إنها دعوة إلى أن يفكر العالم ويشاهد ويجرب ويستنتج وهو مؤمن بالله وبأن محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله، وأن القرآن كلام الله، لأن هذه الحقائق نفسها حقائق موضوعية عنده دليل عقلي على صحتها.²³

ج- **التوجيه الإسلامي لعلم النفس:** قدم محمد عثمان نجاتي في كتابه "مدخل إلى علم النفس الإسلامي" عرضا مفصلا لمختلف الآراء التي تناولت مفهوم التوجيه الإسلامي لعلم النفس، مركزا على دلالاته لدى عدد من الباحثين.

وحسب ما يبدو أن هذا المصطلح لم يلقى معارضة شديدة كالتي لقيها مصطلحي: علم النفس الإسلامي وأسلمة علم النفس، وفي اعتقادنا أن ذلك لا يرجع إلى تأييد هذا المصطلح كمصطلح ورفض غيره، وإنما لأن تركيز الباحثين لم يعد منصبا على المصطلحات بقدر تركيزهم على مدلوله، نتيجة لزيادة الإهتمام بالدعوة للتناول الإسلامي لعلم النفس وتطور هذه الحركة وزيادة البحوث حوله. لذلك نجد أن أغلب الآراء التي عرضها نجاتي ركزت على شرح المفهوم، أي بمثابة تعريفات، وتتضمن بشكل معلن وحتى ضمني عمق في الرؤية ومحاولة جادة لضبط المفهوم التقدم للأمام لاقتراح آليات لتطبيق معانيه.

من التعريفات التي وردت لمفهوم التوجه الإسلامي لعلم النفس ذلك الذي أورده نيفين عبد الخالق مصطفى، والذي يمكن أن نعتبره تعريفا جديا مبسطا للمفهوم، حيث ترى أن التوجه الإسلامي للعلوم الكونية يعني أن ننهي مقولات: إن الطبيعة فعلت كذا وكذا، وهي تلك المقولات التي ترد في إطار العلم الوصفي لأن الطبيعة نفسها مفعولة وليست فاعلة، أي توجيه استخدام العلم بما يتفق وقيم الإسلام ورسالة الإنسان في الاستخلاف.²⁴

أما عدنان محمد زرزو وخمساوي أحمد خمساوي²⁵ فتناولوا مفهوم التوجه الإسلامي لعلم النفس بشكل جد دقيق ومحدد، وكل منهما قدم دعامات لضبط المفهوم من جهة وتعريفه بشكل مبسط من جهة أخرى.

والحقيقة أن مثل هذه الدعامات تزيل اللبس والتداخل حول مفهوم التأصيل الإسلامي لعلم النفس، بل وتبرز أهميته وضرورته.

ويمكن تلخيص ركائز مفهوم التوجيه الإسلامي لعلم النفس كما يلي:

- 1- **المنطلق:** إعادة صياغة هذه العلوم على النحو الذي يخلصها مما يمكن تسميته بالروح العلمانية، وعلى النحو الذي يعيد صلتها بالخالق.
- 2- **الغاية:** أسلمة الأغراض والضوابط والأخلاقيات، بمعنى وجوب التركيز على عدم استخدام هذه العلوم في الظلم والعدوان، وتصاغ لتتفق مع مبادئ وقواعد الاسلام، وتخدم القضايا الاسلامية.
- 3- **المنهج:** أن يكون منهج العلوم منهاجاً اسلامياً، أي بالطريقة التي رسمها الاسلام.
- 4- **الاستعانة:** مساعدة العلوم بإمدادها بموضوعات أو شواهد أو معينات فكرية اسلامية (مثل نمو الجنين).

د- **التأصيل الإسلامي لعلم النفس:** يعتبر مفهوم التأصيل الإسلامي لعلم النفس من أكثر المفاهيم التي حاول الباحثون من خلاله الجمع بين الآراء المختلفة حول المقصود من الدعوة إلى صياغة علم النفس اسلامياً، على الرغم من أن هناك بعض المحاولات للتمييز بين المفاهيم المختلفة المطروحة، ومع ذلك، ومن خلال التركيز على مضمون التعاريف المقدمة لكل مصطلح، نجد أنها لا تختلف عن بعضها اختلافات جوهرية، ويؤكد محمد عثمان نجاتي هذا الرأي، إذ يرى أنه يمكن اعتبار أن هذه المصطلحات تدل على نفس المعنى، ويمكن استخدامها كمصطلحات مترادفة.²⁶

ومن الباحثين الذين حاولوا التمييز بين مفهومي التوجه الإسلامي لعلم النفس والتأصيل الإسلامي لعلم النفس نجد زكي محمد اسماعيل على أساس أن التوجيه يعني توجيه النتائج والنظريات والمعطيات التي يتوصل إليها العلم في خدمة الاسلام والبشرية جميعاً. أما التأصيل فنقصد به العودة إلى أصول الشريعة الاسلامية باعتبارها المنهج الرئيسي والمعياري الأساسي الذي تستمد منه هذه العلوم أسسها ومنطلقاتها في التفسير والتحليل والتقويم والتأويل، بحيث ينفي من خلال عملية التأصيل تلك ما علق بهذه العلوم من شوائب نظرية وأفكار غربية أو شرقية لا تتفق مع الاسلام غايةً ومنهجاً ومساراً.²⁷

وبهذا المعنى؛ فزكي محمد اسماعيل يفرق بين المفهومين على أساس البعد الزمني، فالتوجه الإسلامي لعلم النفس يعني بالرؤى والآفاق المستقبلية، بينما التأصيل عودة للوراء، إلى التراث الإسلامي القديم.

ويبدو أن هذا التمييز غير مقنع، إذ يطرح التساؤل حول مبرر عدم الجمع بين البعدين: الماضي والمستقبل. فإن كان التأصيل يقصد به العودة إلى أصول الشريعة الإسلامية باعتبارها المنهج الرئيسي والمعياري الأساسي، إلا أن هذه الأصول تحتاج إلى من يدرسها ويبحث فيها، وهو ما ظهر في كتابات العلماء المسلمين الأوائل، إلا أن الحقيقة كما يشير لها الكثير من الباحثين ومنهم محمد عثمان نجاتي²⁸ هي أن المصادر التي استمد منها العلماء المسلمون الأوائل بحد ذاتهم آراءهم في علم النفس لم تكن القرآن الكريم والحديث الشريف فقط، رغم تأثرهم الكبير بما جاء فيهما، وإنما تأثروا كذلك بالفلسفة الإغريقية، وبغيرها من الفلسفات الهندية والفارسية والمصرية.

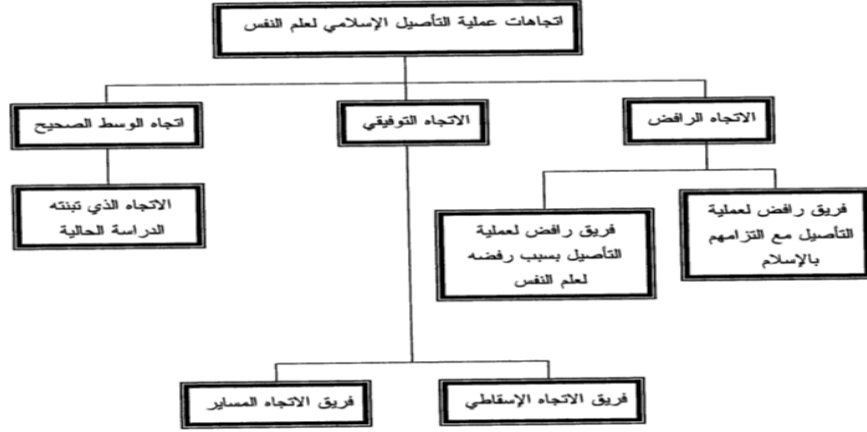
وفي نفس السياق، يطرح محمد عز الدين توفيق²⁹ مقارنة بين مصطلح علم النفس الإسلامي ومصطلح التأصيل الإسلامي، ويذكر أن هناك من يعتبر أن علم النفس الإسلامي هو فرع من فروع علم النفس الاجتماعي يدرس الظاهرة الدينية، وهذا غير صحيح. ولأجل عدم حدوث هذا الخلط أو اللبس؛ يذكر محمد عز الدين توفيق أن ندوة منعقدة بالقاهرة كان عنوانها: نحو علم نفس إسلامي " بحد ذاتها أصدرت توصية تقترح استبدال التسمية من علم النفس الإسلامي، إلى التأصيل الإسلامي لعلم النفس. ويقترح محمد عز الدين توفيق أن يكون هذا التأصيل شرعياً، وعلمياً وتاريخياً.

وعلى هذا الأساس يبدو أن مصطلح التأصيل الإسلامي يتضمن وجهة نظر أكثر شمولاً من باقي المصطلحات الأخرى للدلالة على المثبوت منه، إذ يجمع بين التوجه نحو الماضي والاستفادة من تراث العلماء المسلمين الزاخر بأعمالهم في هذا المجال، ومن جانب آخر يستفيد مما توصل إليه العلم منها ونماذجها، وشرعياً، إذ يمكن على ضوء ذلك تنقيته من شوائب العلمانية الغربية وغاياتها التي قد لا تتوافق مع معطيات الدين الإسلامي، ولكن حتى مما قد يكون تراثاً إسلامياً لعلماء سابقين ولكن لم يتوافق مع ما يتوصل إليه العلماء في الوقت الحاضر، فالتعامل مع هذا التراث لا يعني تقديسه، باعتباره عملاً إنسانياً.

2-2- إشكالات متعلقة بالموقف من التأصيل:

يذكر محمد عز الدين توفيق³⁰ أن الحديث عن حركة التأصيل الإسلامي لعلم النفس انبثقت عنه ثلاثة مواقف مختلفة: موقف الرفض باسم الإسلام، موقف الرفض باسم علم النفس، القبول بالمشروع والعمل على تأصيله.

ولا يختلف ما عرضته جميلة بنت عبد الله سقا³¹ من مواقف عن هذه المواقف الثلاثة، لكن بشكل أكثر تفصيلاً وشمولاً، ويمكن عرض هذه المواقف كما يبينها المخطط التالي:



(سقا، 2001، 52)

يتضح من خلال هذا المخطط أن الباحثين انقسموا إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية حسب موقفهم إزاء التأصيل الإسلامي لعلم النفس، وكل اتجاه يتفرع عنه عدد من الفرق.

1- الاتجاه الرفض: وينقسم إلى فريقين: فريق رافض لعملية التأصيل مع التزامهم بالإسلام، وفريق رافض لعملية التأصيل بسبب رفضه لعلم النفس.

أ- فريق رافض لعملية التأصيل مع التزامهم بالإسلام: يرى أصحاب هذا الرأي أنه يجب الفصل بين العلم والدين، فعلم النفس علم، والإسلام دين لا بد من عدم الخلط بينهما، ويستندون على أربعة أمور تبرر من وجهة نظرهم رفضهم لفكرة التأصيل الإسلامي لعلم النفس، وهي:

- أن تدخل الإسلام في علم النفس هو تدخل إيديولوجي في مجال علمي بحت.
- أن العلم يصحح نفسه بنفسه، ولا حاجة به إلى تدخل الدين.
- أن العلم يجب أن تأخذه كما هو في آخر مراحل تطوره وبمستواه في البلاد المتقدمة.
- أن العلم بجميع فروعه نز طبيعة محايدة.³²

ويبدو أن أصحاب هذا الفريق يصح عليهم ما ذكره مالك بدري بكونهم في مرحلة الافتتان بعلم النفس الغربي ودخلوا جحر الضب، فهم منبهرون بمستوى التقدم العلمي والتكنولوجي في البلدان الغربية، ويرون أنه يجب الاقتداء بهم بشكل كلي لتحقيق ما وصلوا إليه

إلا أن ما غاب على كثير من أصحاب هذا الفريق هو أن علماء النفس في الدول الغربية بحد ذاتها لم يفصلوا بين الدين وعلم النفس، وأصبحوا يدركون أنه لا مناص من استناد وارتباط الدراسات النفسية بالدين؛ وكما يرى نجاتي فإن ثقافة المجتمع وقيمه، وفلسفته في الحياة وتصوره للإنسان والكون ولرسالة الإنسان في الحياة وغايته منها، لا تؤثر فقط في توجيه الدراسات النفسية إلى اختيار موضوعات البحث وإنما تؤثر في تفسيره لنتائج هذه الدراسات،... ولذلك نادى بعض علماء النفس الغربيين البارزين ومن بينهم (ابراهام ماسلو) إلى ضرورة الاهتمام بالنواحي الروحية في دراسة سلوك الإنسان.³³

ومن الأهمية القول أن الدول الغربية تبذل جهوداً حثيثة لحملات التبشير ونشر دياناتهم، ولم تتوانى عن استغلال علم النفس وعلمائه في هاته المهمة، بل ولأغراض غير نبيلة، والأمثلة على ذلك كثيرة، يورد محمد عز الدين توفيق³⁴ نماذجاً عنها؛ ويمكننا أن نورد فيما يلي أهمها:

- إسرائيل: ليس من الغريب أن توجه إسرائيل العلوم الاجتماعية وخاصة علم النفس لخدمة أغراضها الاستيطانية ومعتقداتها الصهيونية (التوراة، وأرض الميعاد، والشعب اليهودي) وتدرس العلوم الاجتماعية في جامعاتها لتحقيق هدفين:

- تثبيت الهوية الثقافية والدينية للشعب اليهودي عن طريق البحث الأكاديمي والدراسة الجامعية، ...

- طمس الهوية العربية الإسلامية للشعب الفلسطيني واستخدام هذه العلوم الاجتماعية لتحقيق ذلك.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد؛ بل أنشأت العديد من مراكز البحوث لهذه الغاية، منها على سبيل المثال مركز بحوث دراسات الجماعات الصغيرة في الثلاثينات، في (ميتشكان)، وعمل فيه عالم النفس الاجتماعي المعروف (كورت لوين)، الذي يطلق عليها الصهاينة اسم "الصهيوني المتأجج"، ويعرف عنه تجاربه الدقيقة عن الجماعات الصغيرة، وأيضاً له إسهامات في دعم الصهيونية وتقوية الروح المعنوية للصهاينة من خلال مركز البحوث المذكور.

- الكنيسة العالمية: تركز الكنيسة العالمية على توظيف أبحاث علم النفس في الدعوة إلى المسيحية وتعليم مبادئها وشرح وجهة نظرها في الصحة النفسية. ففي مجال الصحة النفسية، فهناك اهتمام بشكل خاص من قبل رجال الدين البروستات في أوروبا وأمريكا بالتوجيه الديني، نتيجة لإدراكهم امتداد الاضطرابات النفسية إلى البعد الروحي الذي لا يعالج إلا بتنمية الإيمان. وبالتالي فإن التركيز كان على توظيف علم النفس في الدعوة للمسيحية وممارسة القساوسة للعلاج النفسي، فعملوا على تكوين القساوسة للقيام بمسؤوليات العلاج النفسي والتوجيه الديني، أو العكس، أي بتأهيل بعض الأطباء النفسيين لكي يكونوا قساوسة.

ب- الفريق الرافض للتأصيل من منطلق رفض علم النفس الغربي: أصحاب هذا الرأي يرفضون علم النفس جملة وتفصيلاً، من منطلق أنه لا يمكن تأصيل علم إسلامياً وهو دخيل على المسلمين والإسلام، لذلك ينبغي الإنطلاق من علم نفس "إسلامي" بحت، يكون على يد علماء مسلمين ولا علاقة له بما توصل إليه علماء النفس الغربيين، ويتخذ من القرآن الكريم والسنة النبوية وتراث علماء النفس الأولين مصدراً رئيسياً في البحث والتأصيل. وتذكر سقا³⁵ مبرراتهم في ذلك، نذكر أهمها كما يلي:

- يغلب على علم النفس الاتجاه المادي في دراسته للسلوك الإنساني.

- يعتمد على نظريات الغرائز والتحليل النفسي والحالات الشاذة والمرضية أكثر منه دراسة لطبيعة النفس الإنسانية السوية ويفسر بها كل جوانب السلوك.
- لا يعتبر علما بالمعنى المتعارف عليه للعلم، واستخدامه للمنهج التجريبي يجزئ السلوك، وبالتالي لا يصح التعميم فيه.
- إهمال الجوانب الروحي وتأثيره في النفس البشرية إهمالا كبيرا.

2- الاتجاه التوفيقي: وفيه محاولة للجمع بين علم النفس الغربي والنظرة الإسلامية للنفس البشرية، وينقسم أصحاب هذا الاتجاه إلى قسمين:

أ- فريق الاتجاه الإسقاطي: يقتصر على محاولة إثبات سبق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في التطرق للمفاهيم والجوانب النفسية الإنسانية، وتم ذلك من قبل أصحاب هذا الاتجاه بعرض آيات القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية الشريفة وما يقابلها مما توصلت إليه الدراسات النفسية لدى علماء النفس الغربيين.

ب- فريق الاتجاه المسابير: وتم بشكل معاكس للاتجاه السابق، إذ ينطلق أصحاب هذا الاتجاه من مفاهيم ونظريات علم النفس ويستشهدون بما يدعمها من آيات القرآن الكريم. إلا أن هذا الاستشهاد عادة ما يكون قاصرا عندما توظف الآيات الكريمة في غير موضعها ومدلوها الصحيح.

3- اتجاه الوسط الصحيح: أصحاب هذا الاتجاه ينطلقون من كونهم علماء مسلمون أولا ثم مختصون نفسانيون ثانيا، يعملون على الاستفادة من كل ما توصل إليه علم النفس الغربي في خدمة الإنسان والإسلام، وفي نفس الوقت الكشف عن كل النفاثات والعيوب في أعمال ونظريات علماء النفس وما لا يتوافق فيها مع تعاليم الدين الإسلامي، كما يدركون جيدا أهمية الإعتماد على الأسس والمبادئ الإسلامية لرسم خطة العمل والبحث في علم النفس بكامل فرعه وميادينه.

3- محاولات نحو تأصيل علم النفس إسلاميا:

تأسيسا على ما سبق؛ يتضح أنه باتت هناك قناعة بأهمية تأصيل علم النفس إسلاميا، انبثقت عنها محاولات وجهود كثيرة ومختلفة رسمية وغير رسمية لتبني هذا الطرح، فمن أعمال أبو حامد الغزالي إلى كتاب محمد عثمان نجاتي الذي نشره في سنة 1948 (التي سبق الإشارة إليها)، إلى العديد من الندوات والمؤتمرات التي عقدتها الجمعيات والجامعات في مختلف بلدان العالم الإسلامي نجد أن هناك حركة دؤوبة نحو تحقيق هذا المشروع.

والحقيقة أن مثل هذه القناعة وما انبثق عنها من جهود تركز على الشعور بالحاجة الماسة لتجسيد هذا التأصيل على أرض الواقع، وفي هذا الصدد يذكر محمد عز الدين توفيق³⁶ عدة حاجات يمكن تحقيقها من خلال تجسيد مشروع التأصيل الإسلامي لعلم النفس، من أهمها:

- **حاجة علمية حضارية:** من شأن مشروع التأصيل الإسلامي لعلم النفس أن يعزز سبل الوحدة بين البلدان الإسلامية- وما أحوجهم لذلك- من خلال جمع المختصين في علم النفس في عمل مشترك، في إطار علمي معين على غرار المنظمات التي أنشأت في المجال الثقافي مثلا، كالأسكو، وهذا قد يشجعهم على النظر للمشروع من بعده الحضاري وليس التخصصي فقط، ويتمكنوا من إدراك وحدة الثقافة والتراث والمصدر الإسلامي للتأصيل الذي يجمعهم، والأهداف العلمية والحضارية التي عليهم تحقيقها..

- **حاجة إنسانية:** من منطلق أن مصدر هذا التأصيل هو الدين الإسلامي الذي هو دين للإنسانية جمعاء، وبالتالي، فإن تجسيد هذا المشروع من شأنه أن يعزز القيم الإنسانية التي ينادي بها الدين الإسلامي، والسمو بالنفس البشرية، خاصة وأن النظرة الغربية لها قد شوهتها، ووظفت علم النفس الحديث لأغراض غير إنسانية لم تخدم البشرية.

ومن هذا المنطلق؛ حاول بعض الباحثين اقتراح خطوات منهجية لإرساء قواعد وأسس لحركة التأصيل الإسلامي لعلم النفس، نذكر منهم محمد عثمان نجاتي³⁷ الذي اقترح منهج يتضمن عدد من الخطوات على القائمين بالتأصيل الإسلامي لعلم النفس اتباعها، على أن تتكفل بهذا المشروع لجان تتكون من مجموعة من علماء النفس المسلمين من مختلف التخصصات من جهة، وعلماء الشريعة وأصول الفقه، ويشترط أن تتبنى وتنظم ونشر على أعمالهم هيئة رسمية كجامعة مثلا. تتمثل هذه الخطوات في:

1- كتابة مقال أو تقرير يشمل أعمال لجنة علماء النفس في عملية التأصيل لكل موضوع من موضوعات علم النفس، بحيث يتم فيه التطرق إلى النتائج التي وصل إليها العلم في كل موضوع، تطوره التاريخي، المناهج التي استخدمت فيه، النظريات التي وضعت فيه، البحوث التي تجرى فيه، المشكلات التي لم تحسم بعد وبحاجة لمزيد من البحث. وتشترط هذه الخطوة التمكن الجيد من علم النفس الحديث.

2- يستلم التقرير في هذه المرحلة العلماء المتخصصين في الشريعة الإسلامية وأصول الفقه، للبحث في موضوعات تخصصهم عما يقابل ما جاء في هذا التقرير العلمي من موضوعات. ويشترط في هذه الحالة كذلك التمكن من الأصول والمبادئ الإسلامية.

3- معرفة الدراسات النفسانية للعلماء المسلمين: لمعرفة إسهامهم في إثراء الدراسات النفسية ودورهم في التطور التاريخي لعلم النفس، والمفاهيم والمصطلحات التي استخدموها، وطريقتهم في التوفيق بين موضوعات علم النفس اليوناني ومبادئ الدين الإسلامي. (علم النفس عند ابن سينا، الدراسات النفسانية عند العلماء المسلمين)

4- نقد علم النفس: القيام بالتحليل النقدي لموضوعات علم النفس الحديث على ضوء مبادئ الإسلام... وما لا يتفق يخضع للدراسة بهدف تعديله أو حذفه.

5- إجراء البحوث في علم النفس من وجهة نظر إسلامية: بهدف إثراء المعرفة العلمية. وقج تكون بحوث نظرية - ميدانية تجريبية.

6- عقد الندوات والمؤتمرات العلمية.

7- إعادة كتابة علم النفس في إطار إسلامي.

- في نفس السياق، تقترح جميلة بنت عبد الله سقا³⁸ نموذجاً لتأسيس علم النفس إسلامياً من منطلق دراسات سابقة في هذا المجال، يشمل كذلك على عدد من الخطوات، هي:
- 1- تحديد مسلمات الإسلام الأساسية في دراسة النفس الإنسانية.
 - 2- دراسة خصائص النفس البشرية كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة.
 - 3- وحدة مجال المعرفة. (العقل والوحي).
 - 4- لقرآن الكريم والسنة النبوية مصدران أساسيان للمعلومات اليقينية في دراسة النفس الإنسانية.
 - 5- معرفة إسهامات العلماء المسلمين في إثراء الدراسات النفسية.
 - 6- تحديد أسس ومبادئ علم النفس الغربي.

يبدو من خلال هذين النموذجين أن هناك عدة نقاط أساسية يؤكد عليها كل نموذج يمكن اعتبارها بمثابة شروط لعملية التأصيل الإسلامي لعلم النفس، وإن اختلفت في التفاصيل، منها على وجه الخصوص: ضرورة التمكن من علم النفس الحديث من جهة، والتمكن من الأصول والمبادئ الإسلامية من جهة أخرى، بالإضافة إلى ضرورة الرجوع إلى تراث العلماء المسلمين الأوائل، فكما يشير منصور وآخرون³⁹ فإن هذه محاولات التأصيل لن تبنى من فراغ، بل هناك الجهود والأصول في التراث الإسلامي، خاصة عندما يتم بحث ما سبقنا إليه علماء المسلمين والفلاسفة والأئمة من السلف الصالح، وعلماء الإسلام المعاصرين، ممن قاموا بتفسير سلوك الإنسان، وحيث الإهتمام بدراسة النفس الإنسانية والبناء النفسي للإنسان، بهدف فهم طبيعة سلوك الإنسان وغاياته وأهدافه في الحياة.

ومهما يكن من أمر؛ فإن ما قدمه محمد عثمان نجاتي من اقتراحات يمكن أن تكون أرضية للإنطلاق في مشروع تأصيل علم النفس بشكل جماعي تعاوني بين عدة علماء نفس وعلوم إسلامية، وتحت وصاية نظامية، ومثل هذا المشروع يعتبر تحدياً يحتاج إلى تجسيد، ويتكامل معه ما اقترحتة جميلة سقا، إذ أن ما قدمته يسهل من عمل المبادرات الفردية في البحث في مجال التأسيس لعلم نفس إسلامي.

ما يجدر ذكره أنه من الأهمية بمكان أن تركز محاولات التأصيل الإسلامي لعلم النفس على تحليل نقدي سواء لعلم النفس الحديث من جهة وتراث العلماء السابقين من جهة أخرى، فيتم تعديل ما يمكن تعديله، وإلغاء ما لا يتماشى والمبادئ والمسلمات الإسلامية، للوصول إلى تقديم نموذج أصيل لعلم النفس الإسلامي يكون كبديل لعلم النفس الحديث المستورد والمستهلك كما هو.

ومع ذلك؛ فإنه بتتبع جهود ومحاولات علماء النفس المسلمين في هذا المجال فإننا نجد أنها تباينت فيما بينها في مستوى وعمق محاولة التأصيل لعلم النفس، وكل انطلق من وجهة نظره للمفهوم بحد ذاته. وإن كان من غير الممكن حصر كل إسهامات الباحثين المسلمين إلا أنه ذكر الأمثلة التالية:

- قام سيد عبد الحميد مرسي⁴⁰ باستخلاص مجموعة من الآيات القرآنية التي اختلفت بالنفس البشرية بوجه خاص، والمبادئ الإنسانية بوجه عام، وقد استخرج هذه الآيات من المصحف المفهرس، ثم ردها إلى أصلها في المصحف الشريف وكتب التفسير، فاستخلص معانيها، وصنفها في أنماط مختلفة من الناحية النفسية، كالنفس المطمئنة، والنفس البارة، والنفس اللوامة، والنفس الكادحة، إلى غير ذلك من أنماط النفوس، الشخصية المنتجة والشخصية السوية، ... ويصدرها في سلسلة قام الكاتب بإعدادها بعنوان: دراسات نفسية إسلامية، استغرق إعدادها 15 عاما.

- قدم حسين الشرقاوي⁴¹ تحليلا نقديا لتفسير العلماء الغربيين للسلوك المنحرف لدى الطفل المبني على أنماط تربية معينة، وذلك باعتماده على نماذج وأمثلة نبوية في تربية الأبناء والبيئة التي نشؤوا فيها، وبين أدلة تدحض ما جاء به علماء التربية الغربيين، كما رفض تفسيرات علماء النفس لأسباب المرض النفسي التي أرجعوها خاصة لعقدتي (أديب والكترا) وأرجعها -اعتمادا على آيات من القرآن الكريم- إلى الغفلة وظلم النفس، ونفس الشيء بالنسبة للفضائل الأخلاقية للنفس البشرية، كما استنبط عدة معطيات نفسية من قصص القرآن الكريم.

- أما منصور وآخرون⁴² فقد قاموا من خلال كتابهم "السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس المعاصر" بتوضيح جهود علماء المسلمين عن التفسير الإسلامي للسلوك الإنساني، حيث عرضوا ما توصلت إليه الدراسات النفسية المعاصرة من مفاهيم وقضايا عديدة تتعلق بتفسير السلوك الإنساني وأنماط أنشطة وجوانب السلوك وآثارها على الحياة النفسية، والتوافق النفسي، وبنية الشخصية، وعرضوا في مقابل ذلك تقاسير وجهود علماء المسلمين من الفلاسفة والسلف الصالح وأئمة الإسلام المعاصرين في هذه المناحي الخاصة بالسلوك الإنساني، والنفس البشرية.

- كما درس توفيق⁴³ العلاقة بين الدراسات النفسية والمنظور الإسلامي بعيدا عن أي حكم مسبق حول حاضر هذه العلاقة أو مستقبلها، وكان الهدف دفع النقاش خطوات جديدة من أجل الكشف عن الجوانب المنهجية التي ترسم ملامح هذه العلاقة واتجاهاتها.

خاتمة:

بناء على ما سبق؛ تبين بما لا يدع مجالاً للشك أهمية التأصيل الإسلامي لعلم النفس ومدى الحاجة إليه، إلا أنه يمكن القول كذلك أن القناعة بهذا المشروع لم تكن كافية لتجسيده على أرض الواقع بشكل ملموس، رغم كل المحاولات والإسهامات التي قدمها العلماء السابقون والحاليون، فما زال علم النفس في كثير من البلاد الإسلامية يعاني أزمة تعريب، فالمقررات الجامعة التي تتناول التراث الإسلامي حول التأصيل ما زالت جد محصورة في قليل من الجامعات، وما زال هناك فصل بين العلوم الشرعية وغيرها من العلوم ومنها علم النفس، وغيرها من مظاهر الأزمة.

وإذا كانت العوائق التي تعانيتها حركة التأصيل الإسلامي لعلم النفس في الوقت الحاضر محصلة لظروف وعوامل تاريخية وسياسية وخاصة استعمارية، فإن الجدير بذكره هو أن الأفق المستقبلية لهذه الحركة تواجه اليوم تحديات جديدة، لا تعيق أيضاً تجسيد هذا المشروع فقط، وإنما تدعو الباحثين حتى الأكثر تحمسا منهم للمشروع إلى التريث ودراسة آليات تجسيده وتقديمه بروية وحكمة، فنحن اليوم في مواجهة واقع يتوجس خيفة بل ورفضاً من كل ما هو "إسلامي" على كل المستويات ومن كل الأطراف.

الهوامش:

- ¹ مشري، سلاف (2014). جودة الحياة من منظور علم النفس الإيجابي، دراسة تحليلية. مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية. جامعة الوادي. (8). 215-237.
- ² توفيق، محمد عز الدين (2002). التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية: البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي. ط2. القاهرة: دار السلام. ص9.
- ³ منصور عيد المجيد سيد أحمد والشربيني، زكريا أحمد والفتي، اسماعيل محمد (2002). السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس المعاصر. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. ص7.
- ⁴ بدري، مالك (2010). أزمة علماء النفس المسلمين. ترجمة: منى كتنباي أبو قرعة. الأردن: ديونو للطباعة والنشر والتوزيع. ص27.
- ⁵ نجاتي، محمد عثمان (2001). مدخل إلى علم النفس الإسلامي. مصر: دار الشروق. ص50.
- ⁶ توفيق، محمد عز الدين (2002)، مرجع سبق ذكره، ص12.
- ⁷ المرجع السابق، ص20.
- ⁸ بدري، مالك (2010). مرجع سبق ذكره، ص108.
- ⁹ الشرقاوي، حسين (د.ت). مرجع سبق ذكره. ص5.
- ¹⁰ توفيق، محمد عز الدين (2002)، مرجع سبق ذكره، ص8.
- ¹¹ منصور وآخرون (2002)، مرجع سبق ذكره. ص07.
- ¹² الصبيح، عبد الله بن ناصر (د.ت). التأصيل الإسلامي لعلم النفس. مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. (22). السنة 22. ص ص 469-506.
- ¹³ نجاتي، محمد عثمان (2001). مرجع سبق ذكره. ص5.
- ¹⁴ العثمان، عبد الكريم (1981). الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص. القاهرة: مكتبة وهبة. ص5.
- ¹⁵ زريق، معروف (1989). علم النفس الإسلامي. دمشق: دار المعرفة. ص4.

- 16 الصبيح، عبد الله بن ناصر (د.ت). التأصيل الإسلامي لعلم النفس. مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. (22) السنة 22. ص ص 469-506.
- 17 نجاتي، محمد عثمان(2001). مرجع سبق ذكره. ص15.
- 18 العثمان، عبد الكريم (1981). مرجع سبق ذكره. ص 3.
- 19 نجاتي، محمد عثمان(2001). مرجع سبق ذكره. ص17.
- 20 العثمان، عبد الكريم (1981). مرجع سبق ذكره. ص 3.
- 21 نجاتي، محمد عثمان(2001). مرجع سبق ذكره. ص19.
- 22 الصبيح، عبد الله بن ناصر (د.ت). مرجع سبق ذكره. ص ص 469-506.
- 23 نجاتي، محمد عثمان(2001). مرجع سبق ذكره. ص22.
- 24 المرجع السابق. ص27.
- 25 المرجع السابق. ص28.
- 26 المرجع السابق. ص29.
- 27 المرجع السابق. ص 30.
- 28 المرجع السابق. ص5.
- 29 توفيق، محمد عز الدين،(2002). مرجع سبق ذكره، ص57.
- 30 المرجع السابق، ص30.
- 31 سقا، جميلة بنت عبد الله(2001). التأصيل الإسلامي لعلم النفس في ضوء توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. رسالة دكتوراه في الأصول الإسلامية للتربية. جامعة أم القرى. السعودية. ص52.
- 32 توفيق، محمد عز الدين(2002)، مرجع سبق ذكره، ص30.
- 33 نجاتي، محمد عثمان(2001). مرجع سبق ذكره. ص50.
- 34 توفيق، محمد عز الدين(2002)، مرجع سبق ذكره، ص45.
- 35 سقا، جميلة بنت عبد الله(2001). مرجع سبق ذكره. ص55.
- 36 توفيق، محمد عز الدين(2002)، مرجع سبق ذكره، ص51.
- 37 نجاتي، محمد عثمان(2001). مرجع سبق ذكره. ص 57.
- 38 سقا، جميلة بنت عبد الله(2001). مرجع سبق ذكره. ص52.
- 39 منصور وآخرون(2002)، مرجع سبق ذكره، ص 07.
- 40 مرسي، سيد عبد الحميد(1994). الإيمان والصحة النفسية. مصر: مكتبة وهبة. ص 228.
- 41 الشرقاوي، حسين (د.ت). مرجع سبق ذكره. ص68.
- 42 منصور وآخرون.(2002) مرجع سبق ذكره. 11
- 43 توفيق، محمد عز الدين(2002). مرجع سبق ذكره.